



الجمعة 12 نوفمبر 2021 03:30 م

طالعت مقالاً للأستاذ الدكتور جمال عبد الستار بعنوان: (الألواح هي الحل)، بدأه بتساؤلات عن الحركة الإسلامية ثم تناول أمر موسى عليه السلام مع قومه وأخيه هارون- عليهما السلام- حين رجع من ميقات ربه وعرض الكاتب وجهة نظره في معالجة موسى عليه السلام للموقف وكذلك أخيه هارون، واستنبط من ذلك تصوراً حاكم من خلاله الحركة الإسلامية والتي يرى الكاتب أنها تخلت عن الألواح وتحاكت للوائح أكثر من تحاكتها للألواح و(انحرفت في سيرها) على حد وصفه، إلى آخر ما ورد في مقاله.

وينقسم تناولنا مقال الكاتب إلى:

- استعراض قصة موسى عليه السلام من خلال القرآن والسنة والمفسرين الثقات
- مناقشة ما طرحه الكاتب من تساؤلات وردود حول الحركة الإسلامية.

أما ما يتعلق بقصة موسى وأخيه هارون عليهما السلام فأقول مستعيناً بالله:

- إن نعم الله توالى على بني إسرائيل رغم الجحود والنكران: {قَالَ أَعْيَبَ الرَّبُّ لِي وَأَصْلَهُمْ عَلَى الْغُلَامِينَ (140) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ مَنِ عَالَ فِرْعَوْنَ يَسُومُوتُوكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْلَبُونَ نِسَاءَكُمْ وَإِذَا كُنْتُمْ لِلنَّاسِ كَالْأَنْعَامِ مَذْذُوبِينَ (141)} (الأعراف).
- إن الله قد اصطفى موسى برسالاته وبكلامه وأعطاه الألواح: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا رَزَقْنَاهُ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ آلِ هَارُونَ أَنْ يَحْمِلُوا فِي السُّورِ كِتَابَ الْغُفُورِينَ (145)} (الأعراف).

- أخبر الله موسى بفتنة قومه وأن السامري أضلهم: {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضًّا يُرَىٰ بِأَسْفُلِهِ الْعَصَا وَقَالَ أَيُّكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَىٰ قَوْمِي عَصَابَانِ أَسَاقًا قَالَ يَرْتَابُونَ أَيُّكُمْ أَرْسَلَنِي فَأَلْقِ الْقَوْمَ اللَّيْلَةَ وَأَلْقِ الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ...} (من الأعراف: 150)، رجع الكليم ومعه ألواح الرحمة والهداية فسمع أصوات قومه.

- قال ابن عباس: "لما رجع موسى إلى قومه، وكان قريباً منهم، سمع أصواتهم، فقال: إني لأسمع أصوات قوم لاهين: فلما عينهم وقد عكفوا على العجل، ألقى الألواح فكسرها، وأخذ برأس أخيه يجره إليه". قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أليس الخبر كالمعاينة، إن الله عز وجل أختبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا، ألقى الألواح فأنكسرت".

- فكان هذا إلقاء الغاضب العيور المتمعر وجهه من سوء فعال قومه وتلقيهم الدائم نعم ربهم بالجحود والنكران والارتكاس في حماة الشرك وعبادة عجل، فلم يكن إلقاء الألواح إلقاء مستبعد للمرجعية أو ناسي للقدسية! فالألواح كما قال ربنا: {وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِأَبَائِهِمْ كَانُوا ظَالِمِينَ (146)} (الأعراف).

- والذين عبدوا العجل لم يكونوا لربهم يرهبون، ورأوا كل آية فلم يؤمنوا، ورأوا سبيل الرشيد فلم يتخذوه سبيلاً، ورأوا سبيل الغي فاتخذوه سبيلاً، فالذين عبدوا العجل غير مؤهلين لتلقي الألواح، والذين استضعفوا هارون وأرادوا قتله لا يصلحون لتسلم الألواح، فالألواح لها أهلها الجديرون بها وهناك آخرون مصروفون عنها: {سَأَصْطَفِيَنَّ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَّكِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَغْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرَّشِيدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ آيَاتِي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146)} (الأعراف).

وننتقل إلى مناقشة تفسيرات وإسقاطات الكاتب:

- أولاً: يقول الكاتب: "ولكن هذا الغضب حمله على أن يفعل شيئاً عظيماً، حمله الغضب على إلقاء الألواح، وسجلها القرآن ليدلنا على بيت الداء: (وألقى الألواح) - والألواح هي المرجعية الربانية، والألواح هي حمل الرسالة وإقامة الدين،".

وهنا لا بد من وقفة لازمة تليق بجلال النبوة والاصطفاء وتتناسب مع قدر رسول من أولي العزم من الرسل، موسى كليم الله المخاطب من ربه جل وعلا: {قَالَ يُمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144)} (الأعراف).

هل موسى حين ألقى الألواح قد ولج بيت الداء؟

هل أهدر موسى المرجعية وعطلها وصار يتعامل مع أخيه منطلقاً من وجهات النظر؟

قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، قال ابن العربي: "وفيها دليل على أن الغضب لا يغير الأحكام كما زعم بعض الناس، فإن موسى عليه السلام لم يغير غضبه شيئاً من أفعاله، بل اطردت على مجراها من إلقاء لوح وعتاب أخ وصك ملك. وقال المهدي: لأن غضبه كان لله عز وجل".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله :-

"إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف.. وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم يُنقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعهم إلا ما يوافق هذا القول".

ثانيًا: يقول الكاتب: "فلما ألقى الألواح أصبح يتعامل مع أخيه منطلقاً من وجهات النظر، فأضحى يتناقش مع أخيه على مرجعية الاتفاقات واللوائح والقوانين التنظيمية، وليس على أرضية الإخوة الإيمانية، فالألواح ملقاة، ومرجعيتها معطلة حالة الغضب!!! فأوصله هذا الطريق إلى سلوك غير معهود في حياة الأنبياء، حيث تنازع مع أخيه حتى جذبه من رأسه ولحيته يجره إليه".

ولا أدري إن كان النبي الرسول كليم الله المطالب بالتبليغ لا ينطلق من مرجعية الشرع ويعمل من وجهة النظر بل صار معطلاً للمرجعية والشرعية بإلقائه الألواح وهو النبي المعصوم!

وهنا أساءل: هل مرجعية الاتفاقات واللوائح والقوانين التنظيمية مرجعية تتنافى مع مرجعية الألواح؟

أقول: إن المرجعية لا تتجزأ، فالمسلمون مرجعيتهم ودستورهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، والاتفاقات واللوائح والقوانين التنظيمية المعتمدة مشتقة من المصادر الأصلية لأننا نتعبد إلى الله ربنا بكل حركاتنا وسكناتنا فما بالك باللوائح والقواعد المنظمة لدعوتنا التي هي من صميم ديننا والتي نراها فريضة شرعية وضرورة بشرية.

بل إنه في إطار القوانين الوضعية يتحاكم الأفراد والهيئات إلى المحاكم الإدارية إذا أصدرت الجهات الإدارية قرارات تخالف القوانين المعمول بها، ويتحاكمون إلى المحاكم الدستورية إذا أصدرت الجهات التشريعية قانوناً يتعارض مع الدستور الذي هو أبو القوانين.

وفي الإسلام تأتي السنة النبوية بمثابة اللوائح والقواعد المنظمة للعبادات والمعاملات، فالقرآن أمرنا بالصلاة والصيام والزكاة ولكن جاءت السنة مبينة موضحة لقواعد الصلاة شروطاً وأركاناً وسنناً وتنظيماً وضبطاً لأداء الإمام والمؤمنين وقواعد أداء الزكاة حولاً ونصاً وقدرراً في الأموال والأنعام والزروع والثمار فلا يستسيغ المرء فهماً وديناً أن يتصور أن تكون مرجعية الاتفاقات واللوائح والقوانين التنظيمية عند الراسخين في العلم والدين تتنافى مع مرجعية الألواح فضلاً إذا كان الحديث يتعلق بالمصطفى الكليم موسى عليه السلام.

ثالثاً:

هل كان موسى في حالة تنازع مع أخيه هارون؟

هل مقتضيات الأخوة الإيمانية تتنافى مع القواعد التنظيمية؟

هل كان هارون هو ضابط البوصلة؟

ماذا كان دور هارون بالتحديد الذي غضب موسى من تقصيره فيه فأخذ برأسه يجره إليه؟

الإجابات في الآية الكريمة: {وَوَعَدْنَا تَارَةً لِّمُوسَىٰ تَلَوْنَهَا لَأُتِيَنَّكَ نَجْمٌ مِّنَ السَّمَاءِ بِأُحْشَابٍ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ لِّمَنْ يَشَاءُ لِيَمْلِكُنَّ آلَ هَارُونَ وَمَنْ يُؤْمِنُ إِنَّ ذَلِكَ لَمَنْ عِندَ عَلِيمٍ} (الأعراف: 142)، وبمراجعتها يتبين الآتي:

● أن موسى عليه السلام قد ذهب لميقات ربه بموعدة ثلاثين ليلة تمت بعشر فكانت أربعين ليلة

● أن موسى أعلم قومه وواعدهم بالانتظار لما سيأتي به من أمر ربه.

● أن موسى استخلف أخاه هارون في قومه في مهمة محددة وهي الاستخلاف القائم على الإصلاح وعدم اتباع سبيل المفسدين.

والحديث هنا يقتضي تحرير الألفاظ وضبط المصطلحات، فقد كان موسى هو الرسول لبني إسرائيل، وما هارون إلا من جملة قومه بهذا الاعتبار، وإنما كان هارون رسولاً مع موسى لفرعون خاصة.

وبناء على هذا الوصف فقد حدد موسى الرسول المهمة لأخيه النبي هارون: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَرَأَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَبَّهُمْ خَشْيَةً حِينَ جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَذَكَرْنَا إِلَىٰ عَمَلِكُمْ لَعْنَتَنَا عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَلِيمًا} (الأعراف: 171).

ومعني اخلفني: كُنْ خَلِيفاً عَنِّي وَخَلِيفَةُ، وهو الذي يتولى عمل غيره عند فقده فتنتهي تلك الخلافة عند حضور المستخلف، فالخلافة وكالة.

"وجمع موسى في وصيته ملاك السياسة بقوله: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ}؛ فإن سياسة الأمة تدور حول محور الإصلاح، وهو جعل الشيء صالحاً، فجميع تصرفات الأمة وأحوالها يجب أن تكون سالحة، وذلك بأن تكون الأعمال عاندة بالخير والصالح لفاعلا ولغيره، فإن عادت بالصالح عليه وبضده على غيره لم تعتبر صالحاً، ولا تلبث أن تؤول فساداً على من لاحت عنده صلاحاً، {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ} تحذير من الفساد بأبلغ صيغة لأنها جامعة بين النهي عن فعل تنصرف صيغته أول وهلة إلى فساد المنهي عنه وبين تعليق النهي باتباع سبيل المفسدين.

وقد أجرى الله على لسان رسوله موسى، أو أعلمه، ما يقتضي أن في رعية هارون مفسدين، وأنه يوشك إن سلكوا سبيل الفساد أن يسارهم عليه لما يعلم في نفس هارون من اللين في سياسته، والاحتياط من حدوث العصيان في قومه، فتوجه موسى بالخطاب لهارون ووجه قومه قائلاً: {يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّي جَاءْتُكُمْ بِالْبُرْهَانِ وَالْحَقِّ وَالْجَوَابِ}، وهذا خطاب لهارون ووجه القوم، فأما هارون فلأنه لم يُحسن الخلافة بسياسة الأمة كما كان يسوسها موسى، وأما القوم فلأنهم عبدوا العجل بعد غيبة موسى، ومن لوازم الخلافة فعل ما كان يفعله المخلوف عنه، فهم لما تركوا ما كان يفعله موسى من عبادة الله وصاروا إلى عبادة العجل فقد انحرفوا عن سيرته فلم يخلفوه في سيرته.

وأما أخذه برأس أخيه هارون يجره إليه، أي إمساكه بشعر رأسه، وذلك يؤلمه، فذلك تأنيب لهارون على عدم أخذه بالشدة على عبدة العجل، واقتصاره على تغيير ذلك عليهم بالقول، وذلك دليل على أنه غير معذور في اجتهاده الذي أفصح عنه بقوله: {إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [طه: 94] لأن ضعف مستنده جعله بحيث يستحق التأديب، ولم يكن له عذر، وكان موسى هو الرسول لبني إسرائيل، وما هارون إلا من جملة قومه بهذا الاعتبار، لذا لم يستعنه إلا الاعتدال والاستصفاح.

وفي هذا دليل على أن الخطأ في الاجتهاد مع وضوح الأدلة غير معذور فيه صاحبه في إجراء الأحكام عليه، وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البعيد".

فيتضح من استعراض ما سبق:

أن العلاقة بين موسى وهارون كانت علاقة استخلاف ووكالة من موسى لهارون في قوم موسى على الإصلاح وعدم اتباع سبيل المفسدين وأن هارون كان في موقف المعتذر والمبرر، ومن تبرير هارون تلمح منه احتكامه إلى القواعد واللوائح في قوله:

● {إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}،

● {إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي} أي: حسوني ضعيفاً لا ناصر لي،

● {وَكَأَدُّوا بِقُلُوبِهِمْ يَدِي} يدل على أنه عارضهم معارضة شديدة ثم سلم خشية القتل،

● {قَلَّا نَحْنُ حَشِيتُ بِئِىَ الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} تبرع على تبيين عذره في إقرارهم على ذلك، فطلب من أخيه الكف عن عقابه الذي يتسبم به الأعداء لأجله، ويجعله مع عداد الظالمين فطلب ذلك كناية عن طلب الإعراض عن العقاب.

رابعاً: يقول الكاتب: "اتخذ موسى عليه السلام خطوتين للتصحيح:

الأولى: أنه لم يُطل التدقيق في البحث عن من هو المخطئ ومن المصيب، ولكنه تعالى على الخلاف، وأعلنها منهجية تغافر لا تفاض وتراحم لا تقاطع:

"قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" (الأعراف: 151).

الثانية: عاد إلى الألواح: "وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْعَصْبُ أَخَذَ الْوَلُوحَ فِي نُسْخَيْهَا هَدَى وَرَحْمَةً لِلذِّينِ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهُونُ" (الاعراف: 154)، فلا توفيق ولا هداية ولا رحمة بعيداً عن الألواح.

فهل كان توصيف الكاتب صحيحاً؟

أقول: في كلمة التصحيح ما يوحي بارتكاب الخطأ وهذا متماش مع ما رآه الكاتب وفق تصوره من تعطيل المرجعية وتحكيم الآراء والرؤى الشخصية، وأما عن تعبير الكاتب أن موسى عاد إلى الألواح فهذا يؤكد رأيه في أن مرجعية الألواح كانت متروكة ومعطلة وهذا ما ناقشناه آنفاً، والصواب الالتزام بالتعبير القرآني: {أَخَذَ الْوَلُوحَ}.

خامساً: هل اقتصر موسى على ما ذكره الكاتب أم اتخذ إجراءات وقرارات خلا منها المقال؟

اتخذ موسى عليه السلام عدداً من الإجراءات و القرارات تمثلت فيما يلي:

- تبرئة هارون من تهمة التقصير التي قد بتخليها المتابعون للمشهد فقد استبان لموسى اجتهاد هارون في نهيهم والتصدي لهم حتى أنهم أرادوا قتله، فكان دعاء موسى لنفسه ولأخيه هارون: { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ } وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} .
- التحقيق مع رأس الفتنة السامري وإنزال العقوبة المناسبة لجرمه .
- إزالة المنكر (العجل) ونسفه في اليم نسفاً .
- إعادة الأمور إلى نصابها ورفع راية التوحيد عالية .
- إنزال العقوبة بالمفسدين عبدة العجل .
- أخذ الألواح بقوة كما أمره ربه .
- اختيار وفد التوبة والاعتذار: {وَإِذْ خَلَّى مُوسَى قَوْمَهُ سِبْغِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ لَكُنَّا لَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَنَافِلُونَ} وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْغُيُوبِ} وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْغُيُوبِ} (155)

وبهذا تتكامل الإجراءات والقرارات التي اتخذها موسى عليه السلام في الحفاظ على وحدة قومه تحت راية التوحيد بعد فتح باب التوبة للتائبين وعقاب المفسدين.

"فقد كان اجتهاد هارون عليه السلام مرجوحاً؛ لأن حفظ الأصل الأصيل للشرعية أهم من حفظ الأصول المتفرعة عليه، لأن مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح الاجتماع، ولذلك لم يكن موسى حافياً عليه أن هارون كان من واجبه أن يتركهم وضلالهم وأن يلتحق بأخيه مع علمه بما يفرض إلى ذلك من الاختلاف بينهم، فإن حرمة الشريعة بحفظ أصولها وعدم التساهل فيها، وبحرمة الشريعة يبقى نفوذها في الأمة والعمل بها".

سادساً: يقول الكاتب: "الألواح تتمثل في العلماء الربانيين، والدعاة الصادقين"، فهل الأمر كذلك؟

أقول إن الفارق كبير بين المرجعية ومن يحملها ويتكلم بها أو يعمل بها، فقد ورد في صحيح الإمام مسلم بسنده عن بريدة بن الحبيب الأسلمي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوصي أمراءه وقادة جيوشه فيقول: "وَإِذَا حَاضَرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ دِمَّةَ اللَّهِ، وَلَا دِمَّةَ تَيْبِهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ دِمَّةَكَ وَدِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا دِمَّتَكُمْ وَدِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَى مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا دِمَّةَ اللَّهِ وَدِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاضَرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا".

فهنا يظهر الفارق جلياً في حديث النبي صلى الله عليه وسلم بين المرجعية ومن يحمل لواءها ويعمل في سبيلها حتى وإن كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيما أورده البخاري: "قال ابن عباس ومجاهد: ليس أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم".

وأكرر قولاً مشهوراً يتداوله أهل السنة لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حيث قال: "من كان مستنأ فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة".

وفي رواية أخرى، أنه قال: "ألا لا يقلدوا أحدكم دينه رجلاً، إن آمن: آمن، وإن كفر: كفر؛ وإن كنتم لا بدّ مقتدين، فافتدوا بالميت؛ فإنّ الحي لا يؤمن عليه الفتنة".

وفي الحقيقة أن هذا القول يمثل عصمة من الزلل لعموم الأمة، خصوصاً حال انحراف بعض أهل العلم عن جادة الصواب.

أما عن الاتهامات التي ساقها الكاتب للحركة الإسلامية فإن كان مقصده جماعة الإخوان المسلمين فأقول:

- إن جماعة الإخوان منذ نشأتها هي جماعة رائدة علمانية بمؤسسها الأستاذ الشيخ حسن البنا والذي عده الشيخ محمد الحامد من مجتهدى الأمة.
- شارك الشيخان الكرمان الأزهريان حامد عسكرية وأحمد محمود الشيخ حسن البنا هم وعبء تأسيس جماعة الإخوان المسلمين.
- كان الإمام البنا والإخوان من الذين يقدرون للأزهر وأهل العلم قدرهم؛ فمذمذ مكتب الإرشاد الأول للإخوان المسلمين عام 1931م وكان به ثلاثة من علماء الأزهر مروراً بكونية كريمة في إدارة الإخوان الشيخ حامد شريت والشيخ أبو الحمد ربيع والشيخ محمد عبد الله الخطيب والعالم الرباني المجاهد الشيخ الدكتور عبد الرحمن البر.
- إن مكتب إرشاد جماعة الإخوان المسلمين والذي يضم اثني عشر أستاذاً جامعياً وسبعة من الأطباء والمهندسين والباحثين حاملي العديد من المؤهلات العلمية والدرجات الجامعية والخبرات العملية في شتى العلوم والمجالات دليل على مكانة العلم والعلماء في جماعة الإخوان المسلمين.
- وقد جعل الإخوان المسلمون في سلم أولوياتهم رعاية آلاف من طلاب العلم والأزهر وكليات العلوم الشرعية في العالم شرقاً وغرباً ولولا ظروف العنت والتضييق لأحسبنا، ولكن كفى بالله شاهداً مطلعاً عليمياً خبيراً.
- ولقد اهتم الإخوان بالآلاف الطلاب النابهين في شتى العلوم والمجالات والذين تفاجأ بهم نظام مبارك أساتذة في الجامعات وسائر المجالات فما كان من النظام الجائر إلا أن أوصد أمامهم أبواب تولى عمادة الكليات ورئاسة الجامعات ومجالس الإدارات وحال دون ترقيتهم أو تعيينهم ابتداءً، واعتمد نظام الندب وألغى الانتخابات وأمم النقابات؛ لمنع تقلد هؤلاء النابهين مكائهم اللاتقة المستحقة في صدارة الهيئات والمؤسسات.
- وإن العلماء الذين تخرجوا من جماعة الإخوان المسلمين ونشأوا في رجاها أكثر من أن تحصيهم الأوراق أو يشملهم الحصر، وإنه ليعوزنا معجم مفهرس لعلماء الإخوان وخريجي مدرستهم ومحبيهم لتعلم الدنيا ماذا خسرت بالحرب على جماعة الإخوان المسلمين، أو كما قال عزيز صدقي- رئيس وزراء مصر الأسبق:- "علينا أن نعتذر للشعب مصر لأننا حرمانه من الإخوان المسلمين".
- وأقول ما حيلة الإخوان مع نابهين ودعاة شغلهم صفق الأسواق والمشروعات، وسعهم حديث أبي هريرة رضي الله: (إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَسْأَلُهُمُ الصَّفَقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَسْأَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْتَمِسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَبِيحُ بَطْنِيهِ، وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ، وَيَحْقُطُ مَا لَا يَحْقُطُونَ).
- وما حيلة الإخوان مع زمرة صالحة يرون أنفسهم جديرين بالإدارة والصدارة، وإن التجارب لتشهد وتقرر أن أساتذة للإدارة والإقتصاد يتخرج من تحت أيديهم آلاف النجباء، ولكنهم عند إدارتهم الوزارات والهيئات يكون اليون شاسعاً بين درجاتهم العلمية ومحاضراتهم التدريسية وبين أدائهم الإداري. وليس كل دارس للعلوم الشرعية مؤهلاً للإفتاء؛ فالفارق معلوم بين الحكم الشرعي الذي هو: "خطاب الله تعالى، المتعلق بأفعال المكلفين، اقتضاءً أو تخييراً أو وضعاً"، وبين الفتوى والتي هي: "بيان الحكم الشرعي عند السؤال عنه، وقد يكون بغير سؤال بيان حكم النازلة لتصحيح أوضاع الناس

وتصرفاتهم".

وكم من مفت هلك وأهلك وأضل وقتل وصدق فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوها إذ لم يعلموا؛ فإنما سيفاء العبي السؤل".

وكان المفتي القاتل والمستفتي المقتول من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكم أورد مفتون شاباً متحمساً في المشارق والمغرب موارد الهلكة بفتاوى لم تراع المال ولم توازن بين المصالح والمضار وتعاملت مع الأمر كأنه حلال وحرام، وغاب عنهم أن الفقه ليس بيان الحكم فحسب بل مراعاة فقه المآلات وفقه الموازنة بين المصالح، والموازنة بين المفاسد، والموازنة بين المصالح والمفاسد، والشواهد حاضرة ماثلة. إن دعوة الإخوان ترى الإسلام ديناً ينتظم مظاهر الحياة جميعاً امتثالاً لقول الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} (المائدة: من الآية 3)، وكما أرشدنا الإمام حسن البنا رحمه الله في رسالته بين الأمس واليوم: "أيها الإخوان إذا قيل لكم إلام تدعون فقولوا ندعو إلى الإسلام والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه، فإذا قيل لكم هذه سياسة، فقولوا هذا هو الإسلام ولا نعرف هذه التقسيمات". لم يفارق الإخوان المسلمون دعوتهم يوماً في أحلك الظروف والأوقات، ولكن دعوتنا وديننا كما قال نبينا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: "الإيمان بضغ وسغون، أو بضغ وسغون، شغبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شغبة من الإيمان". حقيقة وواقعاً... الإخوان المسلمون القرآن دستورهم والرسول قدوتهم وفق مبادئهم الخمسة، ودفع الإخوان المسلمون ثمناً غالياً عبر السنين وفي شتى الأمصار حفاظاً على الدين وهوية الأمة ولو تخلوا عن قرآتهم لفتحت لهم مغاليق الأبواب.

ما حيلة الإخوان مع نابهين يرون ممارسة الدعوة بلا سياسة وممارسة السياسة بلا دعوة، ويرون حل الجماعة، وتحويل الجماعة إلى تنظيم اجتماعي، ويرون المواءمة والتماهي مع أصحاب الجاه والنفوذ والمال؟!

ولمن أراد أن يعرف كيف ينظر العالم إلى الإخوان فليقرأ ما كتبه هنري كيسنجر- مستشار الأمن القومي الأميركي الأسبق ووزير الخارجية في عهد الرئيسين ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد- عن الحركات الإسلامية، قال: "إن النظام العالمي الجديد لا يمكن أن يقف في وجه أي أيدولوجية إلا الإسلام، فالإسلام هو العدو الوحيد للنظام العالمي الجديد".

وقال: ومن دراستنا للإسلام يمكن أن نقسم الأمر إلى حطب وشرارات، فالحطب هو المجتمعات المسلمة والشرارات هي الجماعات العاملة للإسلام. وقال أيضاً: "مهمتنا الأولى الحيلولة بين الحطب والشرارات حتى لا يتم التوصل، ومهمتنا الثانية وضع مسطرة الخطورة للشرارات حتى نستعين ببعض على بعض وإننا بنظرة إلى الشرارات وجدنا أنها خمس درجات في الخطورة، أقلها خطورة: أصحاب الجانب العقدي في الإسلام وهؤلاء يمكن الاستفادة منهم، بعدهم في الخطورة: الذين يهتمون بالجانب الأخلاقي في الإسلام وهؤلاء لهم قيم، والنظام العالمي الجديد ليس له قيم مشتركة ولكنه يقول يمكن الاستفادة منهم لأنهم يأخذون قيادي المجتمع وبحشرونه في زاوية ضيقة في الحياة.

المستوى الثالث: من الجماعات التي تهتم بالجانب الثقافي ونشر الكتب وتحقيق المخططات، المستوى الرابع: الجماعات القتالية، وهؤلاء ربما يبني أحدهم تنظيمًا في ثلاث سنوات ثم يدخل معركة ويخسر التنظيم في ثلاث دقائق.

أخطر المجموعات هي المجموعة الخامسة: الذين يأخذون بالإسلام شمولياً فيغنون به جوانب الحياة، يقول إذا رفعا شعارا رفعوه معنا ولكن بمفهومهم، إذا قلنا حقوق الإنسان يقولون نعم ولكن بمفهومهم، ديمقراطية يقولون نعم ولكن بمفهومهم، يقول خطورتهم تكمن في أمرين، صعوبة كشفهم حتى ربما يكونون في أروقة الكونجرس الأمريكي ونحن لا نعرفهم، والأمر الثاني في خطورتهم أن لديهم تصوراً كاملاً للدولة ويريدون تنفيذه متى أبيحت الفرصة".

فَعَنْ جُنْدِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَنُّ فُتَيْبًا حَرَاوِرَةً، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَارْتَدَدْنَا بِهِ إِيْمَانًا".

وقد لخص هذا الحال؛ ابن عمر رضي الله عنه لما قال: "لَقَدْ عَشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَإِنَّ أَحَدَنَا يُؤْتِي الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِيلُ الشُّورَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَتَعَلَّمُ خَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَتَّبِعِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمْ الْقُرْآنَ، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يُؤْتِي أَحَدَهُمُ الْقُرْآنَ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ قَائِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا أُمَّرُهُ وَلَا زَايِرُهُ، وَلَا مَا يَتَّبِعِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ يَنْتَرُهُ نَتْرَ الدَّقْلِ". فهل تكون الألواح حلاً كما يرى كاتب المقال؟

ومع أن الله قد أبدلنا خيراً من الألواح، ألا وهو القرآن الكريم؛ فإن القرآن وحده لا يكون حلاً بغير فهم رشيد، وإخلاص أكيد وعمل سديد. ويمكن تلخيص ما سبق فيما يلي:

1. أن إلقاء موسى- عليه السلام- الألواح وكسرها لم يفسره أحد من العلماء بالتعطيل أو الترك، بل بالغضب الناتج من جحود قومه نعم الله عليهم ورجوعهم للضلال.
2. ثنائية (تعارض اللوائح مع الألواح) مغلوطة؛ لأن المرجعية لا تتجزأ، والمسلمون مرجعيتهم دستورهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والاتفاقات واللوائح والقوانين التنظيمية المعتمدة مشتقة من المصادر الأصلية، لأننا نتعبد إلى الله ربنا بكل حركاتنا وسكناتنا فما بالك باللوائح والقواعد المنظمة لدعوتنا التي هي من صميم ديننا والتي نراها فريضة شرعية وضرورة بشرية.
3. كان هارون- عليه السلام- من جملة قوم موسى- عليه السلام-، واستخلف في مهمة محددة وهي الاستخلاف القائم على الإصلاح وعدم اتباع سبيل المفسدين، والخلافة وكالة وتنتهي الخلافة عند حضور المستخلف، ومن لوازم الخلافة فعل ما كان يفعله المخلوف عنه.
4. غضب موسى- عليه السلام- من الحال الذي وصل إليه قومه بعدما استخلف أخاه هارون فيهم، وظهر غضبه هذا في إلقائه الألواح وأخذه برأس أخيه، وليس في ذلك اتهام بالتعطيل أو تنازع أخوي! دليل أنه لما هدأت غضبته- عليه السلام- أعلن تبرئة أخيه مما قد يتبادر للأذهان من اتهام: {قَالَ رَبِّ اغْنِرْ لِي وَاجِبِي وَأَدْخِلْ لِي فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151)} ثم بدأ بالإجراءات التي تؤكد التزامه بالألواح: {إِنَّ الَّذِينَ تَحَدَّوْا بِاللَّعْنَةِ لَنْ سَيِّئَاتِهِمْ عَصَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْأَخْيَوتَةِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَذَلِكَ تَجْزِي لِمَنْ يَفْعَلْ تَتْرِبِينَ (152)} (الأعراف).
5. الفارق كبير بين المرجعية وبين من يحملها ويتكلم بها أو يعمل بها، والألواح لا تتمثل في أشخاص، ومن كان مستنئاً فليستن بمن قد مات؛ فالحي لا تؤمن عليه الفتنة، وقد استدللنا على ذلك من سيرة المصطفى- صلى الله عليه وسلم-.
6. من أهم قواعد وأصول إصدار الحكم الشرعي في مسألة ما، قاعدة تحرير المفاهيم التي تتضمنها المسألة، وتعريفها تعريفاً واضحاً.
7. وبمراجعة ما سبق أرى أن الحل يبدأ من: - الإنطلاق من الفهم الأصيل للإسلام ديناً ينتظم مظاهر الحياة جميعاً. - قراءة المرحلة الراهنة قراءة عميقة في إطار الفقه الصحيح للكتاب والسنة. - الالتزام الكامل بأصول الدعوة وأركانها وواجباتها وأدبياتها ولوائجها ونظمها. - إدراك طبيعة الحرب على جماعة الإخوان المسلمين والنظر إليها نظرة منصفة من خلال إنجازاتها طيلة ثلاثة وتسعين عاماً. - الوفاء ببيعتنا مع ربنا نصرته لديننا.
8. وأخيراً.. إن جماعة الإخوان المسلمون جماعة من المسلمين يعترها ما يعترى البشر من نقص وقصور وما نبرئ أنفسنا ولكننا نعمل ما وسعنا الجهد ونرحب بكل جهد مضاف وتجديد أصيل ونصيحة منصفة.

وصل اللهم وسلم على عبدك ونبيك ورسولك محمد.

